أندرس سابيلا.. رجل ذو دروب أربعة

ترجمة وتقديم أحمد يعقوب

"أحد أهم الأصوات الغنائية الأكثر أهمية في تشيلي". هكذا يصفه الشاعر "ماتياس رفيدي"[١]، ويقول عنه: " أندرس مبدع بروح طفل، يداه تحولان كل شيء الى شعر وصداقة، قصائده العنيدة تقدم لنا انساناً صاحب جذور عميقة في التخيّل وله سيطرة مطلقة على الحرفة الشعرية وسحرها".

والشعر يراه أندرس:"ثياب يوم الأحد بالنسبة للكلمات" والكلمة لـ "أندرس" تعني "الحياة" ويؤكد أنه: "بفضل الكلمة أنا موجود، أنا رجلٌ في خدمة الحب والسلام "، لهذا أطلق شعار "سلام وشعر" ليصبح "يافطة تعلق في جميع أنحاء تشيلي، انتشرت عبر بطاقات المعايدة، بل تم وضعها على علب الكبريت التي كانت تصدرها تشيلي ضمن صادراتها الخارجية" .

يسكنه قلق دائم إزاء التخيّل والأسطورة التي يحب اجتراحها بنفسه، لكن سعادته لن تكتمل إلا: "لو أنني عشت في كشك قديم على ضفتي البحر، ويكون ثمة جسر يوصلني، كذلك مع قارب أتمكن من الكتابة فيه، كتابة كلّ ما أشتهيه يوما بعد يوم. أن أكتشف شعراً في زهرة، بل في نظرة طفل في نوارسي، في التراب... فأنا القرصان الأكثر سعادة عندما أتمكن من معانقة البحر...".

لكنه لا يكف عن تذكر ما أورثه إيّاه والده الفلسطيني: "كانت لوالدي نظرة بانورامية تجاه القدس، كل صباح كان يتأمل صورتها وكأنه يستمد منها الطاقة اللازمة كي ينطلق الى عمله، وبشكل يومي كان يقودني الى الصورة ويبدأ بالتأشير الى قباب المساجد، الكنائس، المدينة القديمة، ويذكرني دائما أنه في تلك الشوارع كان "يتعفرت" في طفولته، وكان يؤكد لي بصوت حازم وصارم: "ولدي فيك الكثير من هناك". وهكذا كان يحملني مسؤولية جرت في دمائي هي: "الاحتفاظ بالقدس في القلب".

---

١) شاعر تشيلي من أصول فلسطينية.

لكنه يوازن في انتمائه بين فلسطين وتشيلي، إذ قال "نيرودا " عنه: "أندرس سابيلا شمالي، كما أنا جنوبي".

تأخذه روحه الإنسانية الشمولية الى منابع الأدب العالمية الى "بودلير" و"روبن داريو" و"ماتشادو" إضافة الى التراث العربي الذي منحه ثراءً لغوياً وخيالاً فياضا وحنينا ناعما.

بوهيمي خاص

في شبابه المبكر ترأس مجلة (البردى / أوراق شعرية)، وفي عام ١٩٣٠ ترأس المجلة التي تصدر عن المدينة التي ولد فيها وتحمل اسمها (انتوفاغستا)، كما أسس في ١٩٣٣ مجلة "إلى" والتي وصلت أعدادها الى المائة عدد، مما أعطاها مكانتها كإحدى أهم المطبوعات في الثقافة التشيلية. وفي فترة دراسته الجامعية ترأس المجلة الناطقة باسم اتحاد الطلاب الجامعيين في تشيلي، وكان أحد أهم المشاركين في تأسيس نادي أصدقاء الثقافة العربية سويةً مع "بنديكتو شوقي".

عاش سابيلا البوهيمية بأوسع حالاتها وعن ذلك يتحدث صديقه الشاعر "ماريو فيرور"[٢]:

"في شوارع باندیرا التي كانت مركزاً ليلياً لنا، كنا سابيلا وأنا في مطعم (لا ـــ انتونيانا)، وهو مطعم تقدم فيه الفرق الفنية عروضاً راقصة، كان أندرس زبونَ شرف، يكتب الأغاني وبالتحديد الرومانسية ذات ايقاع (بوليرو) والتي كان يتم عزفها فيما بعد أمام (لا ـــ انتونيانا) على الملىء عندما تكون الشوارع مليئة بحركة فنانين تشكيليين يرتدون ملابس غير متناسقة الألوان، وتجار متجولين وبنات سيئات السمعة وأساتذة " ممرمرين " وبائعي حبال، وحكواتيين... الخ.

إضافة لذلك، كنا نشارك في كل التظاهرات والاجتماعات، إذ من مطعم (لا ـــ انتونيانا) انطلقنا بحملتنا من أجل السلام، وحصلنا على أكثر من خمسمائة توقيع لتأييد نداء استوكهولم الشهير للسلام.

لقد كان لـ (المبشرين / الواعظين) مجالس كثيرة في شوارع تشيلي عدا عن تجمعاتهم في الساحات العامة حيث يتحدث جميعهم في آن، لذلك اقترحنا عليهم ـ سابيلا وأنا ـ أن يتم التالي : يتحدث كل واحد منهم بشكل متناوب لمرة، ونتحدث ،نحن، الشاعران، مرة فقط.

وفي يوم الأحد اللاحق للاقتراح، وعند الثالثة ظهرا، كنا وسط ساحة ركاب الدراجات النارية (موتروس) وفي الجانب الآخر من نهر (مابوتشي) كان الواعظون في زاويتهم. صعد "أندرس" على حجر وقرأ قصيدة لـ "غابرييلا ميسترال" وأغانيها عن المناجم، واستمر الاقتراح بأحسن أحواله، إلا أن "أندرس سابيلا" في يوم ما، وعند زاوية تقاطع شارع (فرانكلين) مع شارع (سان دييغو) طرأت

مجلة الأمة، العدد الثامن ١٩٦٥

له حكاية سيئة بأن يقوم بتكريم النبيذ، مستخدماً مقاطع من أشعار بودلير، اعتقد الكانوتوس/ المبشرون) أنه يريد الاستهزاء بمعتقداتهم، ومن غير أن يقولوا شيئا انطلقوا صوبنا وكان ما كان.

ماسحو الأحذية كانوا في شارع "باندیرا "وكان منهم الملقب بـ"قرد الزهور" الذي كان زميل دراسة لـ "أندرس" في كلية الحقوق، لكن إدمان "قرد الزهور" على الكحول جعله لا يجد عملا إلا ماسح أحذية وحارس سيارات. وكلما شاهدنا ندخل المطعم كان يترك عمله ويأتي ليجلس الى طاولتنا، كان يضع على الطاولة "قفازات" تصل الى فوق الكوع، والتي استمر يعمل بها الى أن مات.

لقد استمر "أندرس" كطالب مؤبد في دراسة القانون، وكان يفسر ذلك بأنه ليس على عجلة ليصبح محاميا لأن والده كان قد قال له : "عندما تصبح محاميا سأموت من الفرحة"، لهذا لم يتخرج حتى لا يقتل والده !.

فيما يصرّ أصدقاؤه على أن علاماته في الامتحانات الجامعية كانت ممتازة جدا، لأن إجاباته "لم تكن أكثر من مقاطع شعرية لرامبو، و لوتريامون، يقدمها كمحامي دفاع عن الأسطورة بوصفها عنصرا للتمحيص القانوني".

أحذية المناجم

من أعماله الشعرية الأكثر أهمية "رجل ذو دروب أربعة" وهي قصائد موزونة ونثرية نشرها في عام ١٩٤٢ وأعاد طباعتها في ١٩٧٢.

يقبض الشاعر فيها بإخلاص وحنين على الفضاءات الضائعة : عالم الرواد الذين عجنوا حظوظا كبيرة، عالم مناجم النحاس، الأساطير القديمة لبائعي ملح البارود، أشباح صحراء (اتاكاما)... في قصيدته "مرثية لأحذية المناجم" يعطي الأحذية رمزا وجوديا، فالحياة تمشي بين أقمار وشموس الزمن مع استحالة إعادة امتلاك تواريخ أو أسماء.

"لا أعرف أين رأيتها

في أية ظلالٍ للبيت".

لكنها تمتلك شرطا إنسانيا، فهي عابرة تأتي معنا منذ الأبد، تعبر الطرقات، لها "غبار من مائة عام"، تبذل جهودا ومعاناة، "تتعرق" لكنها تخفي أثار أشياء عزيزة "شموس عتيقة"، وتحتذي قلق الكائن البشري، حاجاته القاهرة اليومية، البرد، العطش، جوع الطريق، سيرةُ البطيء والمتعب في الطرقات الرملية والصخرية، وكأن الأحذية تمثل تاريخ كل الأموات الذين يطوفون ليل وعزلة الإنسان الذي

يسكن الأحلام والشموس المجهولة علّه يصل الى النجوم في رحلة فنتازية، لكنه يهبط من الماضي البهي الى مذاقات الأباريق العذبة و "الأعسال الميتة"... وربما ثمة هذيان كان..

الظل في القصيدة ربما كان رمزا للحماية الداخلية، ربما أنتج قشعريرة حميمة عند الشاعر عندما يتذكر لون الأحذية وحالتها :

"وأنا أرتجف

أتذكر لونها، لون أعسال ميتة

حالتها التي لجرارٍ فخارية

كي تخبىء الظل".

أي الوجودية الفسيحة...لكن على العكس من أمنيات المظلوم تهرب الحياة، الأحلام تفرّ نحو اللاجهة واللا شيء". ربما نحو النسيان، نحو السعادات والآمال التي تبتعد تجاه أفاق آخرى:

"يوما ما

ببطء

هربت الأحذية وحيدة

وكأن الحنين سيحتذيها".

طفولة الشاعر تطوف في "حصان في يدي" و"أغانٍ للبحر كي يلعب معنا" وكذلك "طفل آخر هو البحر". عدا عن مفردات مثل "حمامة، غيمة، أجراس، سلطعونات، جنيات ماء، ريح...

"يا حسرتي يا حسرتي

على طاحونة الهواء

خبر خطير:

لقد أضاعت الريح".

هذا المقطع القصير يوقظ تناغمات عميقة في الروح الطفولية بصفاء وشفافية وحرفة، لأنها تحتوي على سذاجة / عبقرية وربما سحر :

"قوس مباشر

الغزالة

الهاربة

تنحرف

تقفز أياما

بلا ضفاف بعيدة وصفراء".

ربما لهذا أرسلت له الشاعرة الكبيرة " غابرييلا ميسترال " تشكره على طفولته الكبيرة.

"قرأت قصائدك واحتفيت بمقاطع عديدة... أشكرك لأنك كتبت أشعارا لا تنتهي بالميتامورفوزات فقط، بل بالحب الخافق في كتاب صغير ولطيف".

في مجموعته "عند أبواب الغسق" يظهر الطابع السياسي الإجتماعي، ويسكنه قلق اجتماعي كأن الانسان يفرّ من بين يديه فيغرف تفعيلاته من التعذيب، من الجور والبؤس والحرمان، وفي "مسيح كسرات الخبز" ثمة ألم كبير مأسور تخرجه مقاطع متقرحة من الموت:

"هنا، شَيّدوا من الإنسان ركاما

خلية نحل ستكون أنت

مَـقعدا للغناء

عش الحنان الآتي".

لكنه يمضي أبعد من الحرب، من الحقد، نحو أفق للسلام وللأمل، بخلفية ميتافيزيقية ووجودية نجده متشامخا يسير مع الغيوم والصحارى كأنه شقيق سهول صحراء (البامبا)، ويفكك أقنعة من السماء لأن الأيام قد فلقت المرايا والموت يلقي التحية عند كل فجر :

"القطار يجأر

هو القطار الذي لن أراه أبدا

ومن شبابيكه يحييني أمواتُ

هذا الفجر".

و"أندرس سابيلا" هو ناثر ممتاز في مجال الرواية في "شمال عظيم" والتي يقول عنها: "في شمال عظيم اردت إيجاد شكل جديد للرواية يتجاوز حدود الأجناس الأدبية وغيرها، القصيدة، المقالة، التاريخ، الرمزية على أن لا يكون لها وحدة تجعلها متسلسلة ".

لكنها ـ"شمال عظيم"ـ تمتلىء بالشعر الغنائي والملحمي وبالتراجيديا، إضافة الى وقائع تاريخية، إذ ثمة شخصيات تلد وتغيب لكنها تشكل حياة إنسانية، خيالاً متكاملاً. وتزخر بالأفكار الاجتماعية، نضال العمال، الاضرابات، المجازر، الإنحطاط السياسي، ولا يغيب عن الراوي أن يحدثنا عن الفلفل الأخضر، الشجرة النبيلة والطيبة كصديقة وفية للإنسان...

وكذلك يتحدث عن " أرواح " تستحق أن تصبح بذرة للازدهار في هذه البلاد... يتحدث عن ذلك الذي سقط في الامتحان، عن حرب الباسيفيك، عن تصحر الحياة الاجتماعية أمام النساء والرجال....

(بيسنت منجودVicente Mengod) يقول عن "شمال عظيم" : "إننا أمام شخص جمعي، غامض يقدم مناخا اجتماعيا يمكن تسميته بالواقعية المقاتلة..." فـ"شمال عظيم" هي تاريخ، وتوثيق، ورواية، وشعر في آن، وفي روايته "فوق الكتاب المقدس خبز قاس" يأخذ من الحياة أفعالا مرة المذاق، مربعات درامية، لا تكف عن الوجود رغم السنين والتنامي الاقتصادي السياسي والاجتماعي" فـ"السماء الملونة" تقدم الحضور الحزين لقسمٍ كبير من الشعب إزاء الثروة واليسر وسعادة القلة.

حاز " أندرس سابيلا " على درجة دكتوراة شرف من جامعة الشمال التشيلية، وتم ترشيحه الى الجائزة الوطنية للأداب في أكثر من مرة.

عمل أخيرا في كتابة المقالة الصحافية إذ يقدم نصوصا خاصة به يسكب فيها شعريته، ديناميكيته، ومزاجا حاداً.

"إنه رجل استثنائي، لكن مأساته الحقيقية هي أنه لا يبقي عبارة واحدة في الجيوب".

ولد في ١٣ ديسمبر عام ١٩١٢، في مدينة (انتوفاغستا) في تشيلي.... من أب فلسطيني وأم " هندية حمراء ".

درس القانون في جامعة تشيلي، وتخصص في قانون العمل وفلسفة القانون.

في السابعة عشر من عمره أصدر مجموعته الشعرية الأولى (وجهة مترددة – ١٩٣٠).

قُدم نصه (القذارة) الى المسرح في – ١٩٣٩.

صدر له :

سيرة الجرح (شعر) – ١٩٣٥. غومس روخاس، واقعية ورمزية (دراسة) – ١٩٣٧. شعبية غومس روخاس (دراسة) – ١٩٣٩. الدم وتماثيله (شعر) – ١٩٤٠. الحد الأدنى للشعرية العظيمة (دراسة) –. مجاورة الحمام (شعر)- ١٩٤١. النجمة السوفيتية (شعر)-١٩٤٢. الرحـــّالان المتنافران (شعر)-١٩٤٣. الشمال العظيم (رواية)-١٩٥٣. تشيلي إقليم خصب – ١٩٤٥. قصص للأطفال. حول الكتاب

المقدس خبز متحجر(قصص)- ١٩٤٦. مارتن غالا (شعر) – ١٩٥٢. الحصان في يدي (شعر)-١٩٥٣. بحر تشيلي (مسرحية)- ١٩٥٣. شعب الشمس العظيم (شعر)-١٩٥٤. نجمة الإنسان (قصص)- ١٩٥٤. سيماءات من الشمال التشيلي (شعر) – ١٩٥٥. قصائد من المدينة حيث الشمس تغني (شعر) – ١٩٦٣. أغاني للبحر كي يلعب معنا (شعر) – ١٩٦٦. طفل آخر هو البحر (شعر) – ١٩٧٢. خوان مارين والجيل الجديد (دراسة) – ١٩٧٣. أنت لا نهاية لك (شعر) – ١٩٧٢. صولجان المهرج (شعر) ١٩٨٤. على أبواب الغسق (شعر) ١٩٨٧.

طفولة (بابا)

دعته

الأجراس

ليلعب معها :

مرتدياً ثياب عصفور

يعبر سماء القدس

يقبل وجنات صديقاته الصغيرات

مرتبكاً بين حشد من الألحان

لكنه

تابع نحو الغيمة.

مرثية لأحذية المناجم

لا أعرف أين رأيتها ،

ولا في أية ظلالٍ

للبيت.

قدموا

ربما معي ،

سائرين منذ الزمان

تنبعث منهم رائحة غبار عمره مائة عام ،

رائحة التعرق ،

والشموس العتيقة.

خفت منها

ظننت :

أنه فجأة

سيتقدم عظم الأطراف

ليملأها بالبرودة :

وفيما بعد

اللحم

وجوع الطريق

ماذا كان تاريخها

تاريخ " الدبش " والرمل ؟

هل ركضوا

مع جَدّي ؟

هل ،

في الليل ،

تعذبهم الذكريات

الشريدة للبلدة

المعلقة بالنجوم ؟

وأنا أرتجف ،

أتذكر لونها لون أعسالٍ ميتة ،

حالتها الجرارية
لتخبىء الظل
يوما ما
ببطء ،
هربت الأحذية وحيدة
وكأن الحنين سيحتذيها.

رسم ذاتي لهذه السنوات

كيف سأبقى وحيداً في هذه الحرب ؟
ربما فقط، مع ظلال أناسٍ آخرين !!
أنا مقاتل مقفر
حارس قديم لهذه الأرض

كم قتيل الى جانبي لا يفزعني ؟
لايفزعني أن أتقاتل مع عشرة أو عشرين
تفزعني اللارحمة لهذه الجبهة ،
قروح الأخ التي لا تنغلق...

هرج المهرج
اذا كان شعبي يلهو مع شدائد
هذه الحياة الجريحة بالجوع ،
سأخرج أنا مع شعبي الى المعركة

وأقول :

أين هو الخبز، زهرة الفقراء ،

الحرية الواقفة في الأفق ؟

الى بيتٍ ما

كنت أنت عندما لم أكن أنا

ستكون أنت عندما أنا لن أكون...

أسأل نوافذك عن شمس الذين ماتوا

آخرون سيسألون عني

أكتب أسمي على أسوارك :

هل ستمحوه يدٌ ما، هل ستمحوه الأيام ؟

مقبرة مهجورة

فوق البحر، تقريبا، ثمة مقبرة

لذاكرة مقروضة و لــ " اللاذاكرة " :

ميناء، لصواري مشؤومة

حيث الكلس يجترح موجات آخرى

أمشي بين القبور رفقة الريح ،

خطوتان مني يتبسم الشاطىء !!

اذا كشطت لوعة العظام هذه

ستعثر على البحر، بين ظلٍ وظلْ

الكرسي

على هذه الكرسي حيث يحلم الزمن

حلم والدي بعش (/ قفير) نحلة

اليوم أحلم بالشمس بين الحواجب
جبهتي شاهدة قبر صغيرة

إلى كارلوس بِڤْوا باليث
(Carlos Pezoa Valiz)
أكتب إليك، كارلوس، خلف الموقد الشتوي
كلهم رحلوا، بقيت في خرابي.
العزلة تعانق الضباب
الآن يبدأ اللاشيء بحق.
أعيش معتماً هذا الموسم
فزتُ بهذه الميتة الرحالة فقط ،
مسكين شيطان المهجع والحانوت ،
من فزع ظله أمام النظرات.
حشد من حلاجي المرارة والقيد ،
الصدر مشوش، وليس الألم
قريبا ستمنحني الأرض اسمها
أريد، يا كارلوس، أن تمضي الحياة
في الطيف الهادىء للعوسج ،
الشمس بأكملها أن تجالس الإنسان.